نحو الإصلاح المنشود

للأستاذ محمود يوسف

طالما تهيب الباحثون والمفكرون والمصلحون مواجهة الحقائق فى كاباتهم وأحاديثهم، وقد يكون فى هذا التهيب نوع من الاستحياء من عرض عيوبنا عرضا تتوفر فيه العلنية كما يقول رجل القانون ، ولكنهم فى الحقيقة ، أو على الأقل فى نظرى، كالطبيب الذى يتستر على العلة حتى يستفحل خطرها و يتضخم مفعولها دون أن يرشد إليها أو يعمل على مداواتها والقضاء عليها .فالمصلح الاجتماعى الحقيق هو الذى يضع أصبعه على الداء فينبه إليه و يستبين خطره ، لكى يصف الدواء،واذا استدعى الأمر فعليه بالمشرط كى يعمل به بترا أو استئصالا بحسب ما تستدعى الحالة من طرق العلاج ، فنحن فى أشد الحاجة إلى الصراحة الخالصة الصادقة ، الصراحة وان كانت مرة ، ما دامت نتيجتها السمو بمجتمعنا ومداركة الأمم الناهضة فى تقدمها ورقيها .

على ضوء ما ذكرت سأتقدم بكلمتى هذه لحضرات القراء وسأتوخى الصراحة فى هذه الكلمة ، وشفيعى تلك الرغبة المشتركة بيننا نحن المصريين الذين نطمح إلى استعادة مجدنا التالد وعزنا القديم .

ويسرنى قبل أن أبدأ هذه العجالة أن أحيى فى وزارة الشؤون الاجتماعية ما تسعى اليه من أيقاظ شعلة الإصلاح الاجتماعى ، وما يبذله رجالها من مجهود كيما يرتقى مجتمعنا إلى المستوى اللائق بالأمم المتحضرة .

فنحن جميعا نلاحظ أننا آخذون بسبيل مدنية جارفة ، وقد انتشرت مدنية الغرب فى هذه البلاد انتشارا يدعو إلى العجب ، ولست هنا أحاول أن أغمط فضائل المدنية ، وانما أحاول أن أنبه إلى ما ألاحظه على الأخذ ببعض أسباب المدنية غير المستحبة فى مصر زعيمة بلاد الشرق .

فللمدنية فضائل ومحاسن لا جدال فيها ، كما أن لها من المساوئ ما تستنكره المدنية الصحيحة، وهنا تعترضنا حقيقة صارخة وهى أن هذه مدنية صحيحة سليمة من كل عيب، ومدنية مزيفة كادبة فى حاجة إلى التدبر فى أمرها قبل التعلق بها والشغف بمظاهرها البراقة.

ومن الضرورى لأفراد المجتمع أن يخضعوا لنواميس الحياة مداموا يعيشون فيها، فيجاروا أوضاعها و يعملوا على هدى من دستورها ، ولكن من حقنا كأفراد فى المجتمع أيضا أن نمحص ما يقدم الينا من شئون فنأخذ ما يلائمنا وننبذ ما لا يتفق وبيئتنا وطباعنا وطبيعة حياتنا .

فكثيرون يعتقدون أن المرح الصاخب والحفلات الراقصة والاختلاط المشين ومجانبة ذات الأدبية والتغاضى عن العادات الفاضلة، كل هذا من أسباب المدنية الحديثة ،

وقد فاتهم أن المجتمع الراقى فى البلدان الأوربية يستنكر كل هذه المساوئ وقد حدث أن أحد الناس أفرط يوما فى احتساء الخمر ، فكان عقابه أن حرم عليه دخول المجتمعات الراقية ، فهم لا يتسامحون هناك فى مثل هذه الأمور التى يؤاخذون عليها من يرتكبها ، بل هم يستمدون العظمة من سمو أخلاقهم ورفعة مستواهم ، ولا أدل على ذلك من أن البلاد الأوربية الراقية هى أكثر البلاد إصدارا للتشريعات الإجتماعية والأخلاقية ، حتى أننا نحن فى الشرق مهد التشريع والتقنين نستمد الشىء الكثير من تشريعاتهم وقوانينهم .

* * *

لقد مضى الصيف ، وللصيف ذكريات مريرة يتركها فى نفوسنا ما نشاهده من مساوئ فى المصايف المصرية ، وهذه المشاهد وإن كانت قد تهذبت بفضل القوانين التى وضعها القائمون على أمر المصايف ، وهى فى الحقيقة خطوة موفقة فى سبيل الحد من مصارع الأخلاق على الشواطئ ، إلا أننا نطمع فى أكثر من هذا ، نطمع أن تفكر حكومتنا كذلك فى تخصيص مكان معين فى الشواطئ للسيدات ومكان آخر كذلك للرجال ، نطمع فى أن لا نرى تلك الفوضى الأخلاقية التى نشاهدها فى مصايفنا المصرية .

وليس من العدل مطلقا أن نفرض على القائمين على أمورنا واجبات وننسى أننا نحن المسئولون عن الشىء الكثير من هذه الفوضى الأخلاقية وبخاصة الرجال منا ، فنحن المسئولون أولا عما وصلنا إليه من تدهور أخلاقى ، فكل أب وزوج وأخ ، وكل مسئول عن أسرته ، مطالب بما تفرضه عليه أبوته أو زوجيته أو أخوته ، فالرجال فى الحقيقة يمكنهم بشىء من التدبر والحكمة أن يمنعوا هذا الاستهتار ، ويقوا أسرهم شر ما تتعرض له من سوء المصير ، وما نحن منقادون إليه من نهاية لا نستطيبها ، فإنى أهيب البصر من الآباء والغيورين من الأزواج ، والأوفياء من الإخوة أوجه هذه الكلمة ، وأدع لهم التصرف السليم والدعوة الصالحة والتوجيه الصحيح ، فيؤدون ما فى أعناقهم من دين لوطنهم ولأسرهم وأعراضهم .

أريد أن أسر فى هدوء فى آذان بعض السيدات كى أنبههن إلى مناظر ربما يخيل اليهن أنهن قد يبدون فيها أكثر جمالا أو فتنة ، فكثيرا ما نرى سيدة جميلة تحوى كل معانى الفتنة والجمال ومع ذلك تشوه من جمالها وتقلل من فتنتها الطبيعية بإتيانها عادات غير مستحبة . فما من مرة رأيتها تدخن إلا وتصورت الدخان يحجب جمالها عن الأنظار . وما من مرة شاهدت الدخان يتسرب من بين شفتى سيدة ويتجمع حول وجهها حتى يخيل إلىّ أن ضبابا كثيفا قد حجب جمالها وفتنتها . وإنى لواثق أن سيداتنا اللواتى يدخن — ولست أعدوا الحق إذا قلت إنهن يدخن من قبيل المحاكاة — لو أدركن أن فى تدخينهن اعتداء على ما هن عليه من جمال وفتنة طبيعية لامتنعن فورا عن التدخين ، ولأقلعن عن هذه العادة المرذولة التى تأخذ من جمالهن الشىء الكثير .

ولا يختلف كثيرا منظر السيدة المدخنة عن تلك التى تتعاطى الخمر فى جرأة وخروج عما هو معهود فى سيداتنا من خفر وحياء ، يتناولن الكأس بيد ترتعش من فرط ما هى مقدمة عليه من أمر شنيع ، وترتشفه بين نظرات الاشمئزاز المتملقة من الرجال الذين يرتكبون نفس الأمر وإنى لواثق أن مثل هـذا المنظر لا يرضى أبا بارا فى أبوته ، أو زوجا معتزا بكرامته . ومما يبشر بأن أمثال هـذه الدعوة التى ادعو إليها تجد صداها فى نفوس الكثيرين بيننا أن انقرضت عادة وضع الخمر ضمن أصناف المأكولات على الموائد فى الحفلات وما إليها . ويرجع هـذا إلى ما اشتهر عن مولانا وقائدنا "الفاروق" حفظه الله من كراهيته للخمر وتحريمها فى قصوره والحفلات التى يشرفها جلالته .

وهنا يسوقنا القـول حتما إلى التعرض لتـلك الاجتماعات الصاخبة التى يهيئها البعض فى الأمكنة العامة وفى دورهم ، تلك الحفلات التى تقام فى بيوت المتطفلين على موائد الطبقة الراقية ، والطبقة الراقية منهم ومن مخازيهم براء ، ففى تلك الحفلات توأد الفضيلة ويئن الشرف .

انى أنزه سيداتنا الفضليات اللواتى يضرب بهن المثل بين نساء العالم فى الفضيلة والأخلاق الكاملة . أنزههن عما تلمح بوادره مما يسيء إلى بعضهن فيما هو مأثور عن السيدة المصرية . انى أربأ بها أن تأتى ما يشينها ، أريدها مثلا أعلى للمرأة فى العالم ، أريدها فتاة مثقفة كاملة ، أريدها زوجة مخلصة وفية ، أريدها مثلا أعلى لأولادها فى الأخلاق الفاضلة ، أريدها ينبوعا صافيا يبعث الحياة الصحيحة القوية النضرة فى جيل المستقبل ، حملة مشاعل المستقبل .

إن مصر والحمـد لله ما زالت غنية بتقاليدها الصالحة ، ولا يزال فيهـا من هم مضرب الأمثال فى الفضيلة وسمو الأخلاق .

انى لست من أنصار الابتعاد عن المدنية ، بل أنا من أشد المتمسكين بهـا ، المحذرين لها ، ما دامت صحيحة لا زيف فيها ، ففى المدنية الصحيحة محاسن ، كما أن فى تقاليدنا القديمة محاسن كذلك ، فما كل جديد يؤخذ وما كل قديم ينبذ ، فلتكن أمة وسطا تأخذ من محاسن الجديد بقدر ما لا يلهينا ذلك عن مزايا تقاليدنا الصالحة ، تركة آبائنـا وأجدادنا ، رجال الأخلاق والشرف والكرامة .

نصر الله الأخلاق فى بلادنا ، وأيد بروح من عنده فى ظل ملك مصر الصـالح ومثلنا الأعلى الصادق ، الملك فاروق الأول حفظه الله ورعاه ، آمين .

محمود يوسف